

سينما المخرجات في المغرب العربي

دراسة تحليلية فيلموغرافية لتطور صورة المرأة

زراري نجمة

أستاذة باحثة

المدرسة الوطنية العليا للصحافة وعلوم الإعلام

الكلمات المفتاحية : السينما، الحركات النسوية، سينما المخرجات، المغرب العربي.

Résumé :

Cette étude a pour but d'analyser le rôle des femmes réalisatrices du Maghreb et leurs films dans la constructions de l'image de la femme maghrébine, Algérienne, Tunisienne, et Marocaine. Ces images de femmes a l'écran constituent une thématique prisée qui a largement contribué surtout depuis une vingtaine d'années, à la visibilité internationale des «cinéma du Maghreb». Nous allons travailler sur ces productions filmiques et leurs contenus pour arriver a dévoiler les sujets proposés par ces cinéastes maghrébines, et leur discours véhiculé sur les conditions de femmes de leurs pays d'origines. Ajoutons à cela, le parcours de ces réalisatrices et son impact sur la démarche filmique portons sur la femme face a celle, longtemps dominée par les réalisateurs hommes.

Les réalisatrices du Maghreb sont arrivées à une conclusion selon leurs expériences après tous les combats menés par les femmes au monde, syndicats, organisations, écritures littéraires..., que le destin de passer derrière la camera, est une urgence. Ce courant qui a déjà existé à l'occident, sera l'élément de déclencheur d'une inspiration pour ces femmes cinéastes d'où apparaissent des sujets de l'émancipation et des libertés des femmes vers des thèmes plus audacieux tels que : le corps, la sexualité, l'identité entre le modernisme et la culture ancestrale. Ces sujets qui ont fait couler beaucoup d'encre par les critiques de cinéma et le grand public face à une présence marquée par des grands prix dans les festivals internationaux dans le monde entier.

En effet, ce parcours de femmes reflète une certaine image, sur la femme maghrébine selon, des visions proprement idéologiques, et non de la vraie réalité de la condition des femmes arabes en générale.

مقدمة:

المتتبع للمنتج السينمائي النسوي حول العالم يجد العديد من المخرجات قدم من تجارب جديدة بالاهتمام، وتؤكد على حضور المرأة كذات فاعلة في المجال السينمائي، بعد أن ظلت لفترة طويلة مجرد مادة للسينما، تستخدم للإغراء والتشويق والإثارة. ومنذ السبعينيات أصبحت للمخرجات مكانة مهمة في الفن السابع، حيث برزت العديد من الأسماء سواء فيما يخص الأفلام الروائية أو الوثائقية، والتي استقبلها

الجمهور والنقاد باهتمام، ما يفسر فوز العديد من الأعمال النسائية بأرقى الجوائز العالمية، ولهذا تميزت الأعمال التي قدمتها النساء بجرأتها الشديدة، حيث تناولت المشاكل السياسية والاجتماعية، كما تعالج قضايا الجنوسة بقدرة وجرأة حقيقية، كذلك فلحت السينما النسوية في التعامل مع لغة الجسد وثقافته. وهكذا برزت مجموعة من المخرجات مثل: جانب آني فاردا Agnès Varda، ونيلي كابلان، ونيكول غارسيا Nicole Garcia، وكليز دينيس، Claire Denis وكولين سيرو Coline Serreau، وصوفيا كوبولا Sofia Coppola، بالإضافة إلى مخرجات في آسيا مثل سميرة مخملبوف، وفي العالم العربي إيناس الدغدي، مفيدة التلاتلي ونرجس النجار ومن الجزائر آسيا جبار، وما يميز هذه الأسماء هو التنوع واختلاف زوايا الرؤية وتقنيات العمل، مما جعل منها قوة دينامية ساعدت على إضافة الكثير إلى عالم السينما. وقد حاولت السينما النسائية أن تقدم صورة مغايرة للصورة التي صدرها الرجل منذ سنوات عديدة، حين قدمتها هوليوود كموضوع أو مفعول به، ولم تقدمها يوماً كذات فاعلة، ذات رأي وفكر. فهي إما كائن متسلط، أو الزوجة الخائنة، أو حتى المرأة المستكينة التي تعيش دوماً في ظل الرجل، أو وهي الصورة الأشهر والتي مثلتها مارلين مونورو طوال الوقت، في صورة المرأة المغربية التي تمثل الشهوة والإثارة، وهنا تقع المرأة

فريسة لفكرة التشيؤ، أي تصوير شيئا ومادة للإثارة، وهو ما نلمسه من صورة العديد من الممثلات مثل: بريجيت باردو Brigitte Bardot وصوفيا لورين Spfhia Loren، وكلوديا كاردينالي Claudia Cardinale، وكاثرين دونوف Catherine Deneuve، وأورنيلا موتي Ornella Muti، اللواتي قدمن كلهن في صورة الحبيبة المأساوية، والبورجوازية المتدهورة، أو الحاملة، أو ضحية النزعة الذكورية، أو تم تصويرهن في صورة تتسم بالدونية والشر غير المبرر. مما دفع العديد من المخرجات الى التعبير عن رغبتهن في تصوير واقعهن بصورة يمكن لهن تصحيح تلك الصورة النمطية وأن يكشفن عن العالم الحقيقي لها، والذي ظل مهمشاً لسنوات عديدة.

أصبحت السينما إذن وسيلة لكشف غير المتطرق له، واتسمت أفلام فترة الستينات وما تلاها في أفلام السبعينات بنظر نضالية تعمل على قول اللامعقول والمستحى منه في عالم النساء. يتفق الجميع على اعتبار (أليس غاي بلاشي) Alice Guy Blaché أول مخرجة في تاريخ السينما¹، وعرفت بإنتاج المئات من الأفلام، وقد عرفت باقي البلدان الأوروبية وجود العديد من المخرجات.

ويذكر تاريخ السينما أن المرأة حاولت دخول مجال الإخراج السينمائي، ومن الفنانات المصريات اللاتي حاولن دخول هذا المجال هن : عزيزة أمير وفاطمة رشدي وبهيجة حافظ وأمنية

محمد، ولكن لم يتحقق النجاح لهذه التجارب، بل اعتبرت نوعاً من المغامرات غير المدروسة.

ومع مجيء السبعينات من القرن الماضي بدأت شركات الإنتاج تتحمس لتجربة المرأة في إخراج الأفلام الروائية الطويلة، وبدأ النقاد والمراقبون يسجلون ملاحظاتهم على هذا² التيار الذي تدفق، وصار الجميع في حالة فضول لرؤية ما يمكن أن تقدمه المرأة في هذا المجال عندما تتحول إلى قائدة ومخرجة للعمل الفني. خصوصاً أن الكثيرات ممن دخلن مجال الإنتاج السينمائي كان لهن تجارب سابقة في فن كتابة الرواية مثل المخرجة الفرنسية «مارجريت دوراسي» Marguerite Duras التي تعتبر من أعلام الرواية الجديدة في فرنسا والتي كتبت سيناريو فيلم «هيروشيما حبيبي».

فما هو مسار سينما المخرجات في المغرب العربي وهل هناك رؤية إخراجية جديدة لسينما تصنعه امرأة ؟

1- ظهور السينما النسوية في ضل الحركات التحررية:

ارتبط مفهوم وبدايات السينما النسوية عموماً والسينما النسوية العربية على وجه الخصوص بالحركات النسوية التي شهدتها بلدان الشرق الأوسط وشمال إفريقيا بالإضافة إلى محطات التحرر التي شهدتها العالم العربي لنيل الحرية ومشاركة المرأة في النضال كطرف ينشد الحقوق المشروعة للإنسان وللمرأة كذات وكيان، فمهد كل هذا لظهور قيادات نسائية

لتجمعات قتالية ضد الاستعمار كالاتحاد الوطني للنساء الجزائريات الذي بدأ في شكل منظمة نسائية تابعة لجهة التحرير الوطني أثناء حرب التحرير لتكون بذلك الخطوة الأولى المنظمة لتمهيد مشروع المنظمات النسوية والمطالبة بالحقوق والحريات.

كما ارتبط موضوع النهوض بالمرأة في بدايته في العالم العربي بإشكالية النهضة العربية والتي تحدت بالوجود الفرنسي مع حملة نابليون والاحتكاك مع الثقافة الغربية واكتشاف الآخر، ومن أبرز من نادي لمواكبة هذه النهضة ودافع بشدة عن تعليم المرأة وخروجها رفاة الطهطاوي حيث يقول (ومما قيل إن باريس جنة النساء وأعراف الرجال وجحيم الخيل وذلك أن النساء بها مفعمات سواء بمالهن أو بجمالهن وأما الرجال فإنهم بين هؤلاء وهؤلاء عبيد النساء فإن الإنسان يحرم وينزه عشيقته وإما الخيل فإنها تجر العربات ليلا ونهاراً على أحجار باريس خصوصاً إذا كانت المستأجرة للعربة امرأة جميلة فإن العربي يجهد خيله ليوصلها إلى مقصدها عاجلاً.³

كما اعتبر قاسم أمين وضعية المرأة العربية بالمعزولة حيث دعى وبقوة إلى تعليمها والدعوة إلى الوعي بقضاياها حيث جسد فكره في كتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة حيث أتمت كتاباته بالنظرة التقدمية وذلك بعد احتكاكه بالفكر

الغربي أثناء إقامته بأوروبا ومن أبرز مطالبه رفع الحجاب وعمل المرأة.⁴

كما ظهرت تيارات نسوية واكبت هذا الفكر الرجالي الاستثنائي تجاه قضايا المرأة آنذاك كتعبير فعلي عن مواكبة هذه الموجة التنويرية فبرزت في المجال الأدبي عائشة التيمورية، مي زيادة ولبيبة هاشم لتأتي بعدهن المناصرة لقضايا المرأة ملك حفني ناصف والتي اتسمت بفكرها المعادي للبادية والفكر التقليدي متأثرة في ذلك برؤية قاسم أمين التحررية وارتكازها على المطالب الاجتماعية والحقوق التي برأها سلبت من المرأة بمعية الرجل الذي يعتبر المسؤول عن تأخيرها.

كما برزت وبقوة في مصر والتي تعتبر من رائدات النهضة النسوية هدى الشعراوي المنادية لدحض كل أنواع التمييز ضد المرأة بدءا بخلع الحجاب حسب رأيها إلى الحقوق البرلمانية والسياسية سنة 1924 لتفسح المجال بعدها لزعامة الحركة النسوية وانسحابها من العمل السياسي ومواصلة النضال في المجال الاجتماعي لزميلتها منيرة ثابت التي حرمت من التدريس في جامعة السوربون بسبب تحررها الشديد 1940 وناضلت كثيرا في مجال المساواة في الحقوق السياسية للرجل والمرأة كما كانت من مؤسسات اتحاد بنت النيل سنة 1949⁵ فدخلنا بذلك مرحلة تأنيث القضية

واستعادة المرأة لمشغل مواصلة الكفاح الذي بدأه كل من رفاعة الطهطاوي وقاسم أمين في رحلة الحصول على الحقوق والحريات من التعليم والصحة إلى المجال الأدبي والسياسي والاجتماعي ومن ثم المجال الثقافي الذي فجر عوالم نسائية عبرت وبقوة فنية وحس عميق عن واقع المرأة وأوضاعهما من المرأة الوجود والكائن إلى المرأة الحس والمشار إلى المرأة الطاقة والإبداع.

2- النظرية الاجتماعية النسوية :

أ- الموجة الأولى : طرح مفهوم النسوية لأول مرة في 1860 وهو تيار يرفض التمييز النوعي بين الرجل والمرأة الناتج عن المنظومة الذكورية التي شكلت رؤيتها التي بنت رؤيتها عن المرأة باعتبارها كائن أدنى من الرجل، وهو مصطلح يشير إلى وعي فكري وحضاري ومعرفي حيث عرفته الناقدة إلين ميسر Ellen Messer بأنه "لغة جديدة لفهم وشرح العلاقة بين المرأة والثقافة"⁶

Ellen Messer, Disipling Femiism, from Social Activism to Acadimic discourse ,University, 2002, p 26), Duke Davdow.

كما ركزت كارول كويلين (Karol Quillen) في مفهوم النسوية على مبادئ الالتزام بالمساواة الاجتماعية

والسياسية للمرأة في إطار العدالة العالمية المناهضة لكافة أشكال القهر السياسي والاستغلال الإقتصادي⁷.

يمكن القول أن الموجة الأولى من الحركة النسوية تمثلت مكاسبها في الجانب الاجتماعي والسياسي حتى العام 1920، لتدخل في مرحلة الركود في الحرب العالمية الثانية وحركات التحرر في العالم.

ب- الموجة الثانية: دراسات النوع الاجتماعي Gender

: Studies

مفهوم الجندر كلمة إنجليزية تنحدر من أصل لاتيني وتعني في الإطار اللغوي Genus أي الجنس من حيث الذكورة والأنوثة، وقد إنبثق هذا المفهوم في التيار الراديكالي للنظرية النسوية أو ما يعرف بالنسوية الراديكالية ، وهي حركة نسوية تستند إلى أن جذر عدم المساواة الاجتماعية في كل المجتمعات المستمرة حتى الوقت الحالي، ترجع إلى النظام الأبوي، وهيمنة الرجل على المرأة. ومن أهم روادها الفيلسوفة الفرنسية الوجودية سيمون دي بوفوار Simone De Beauvoir في كتابها "الجنس الآخر" عام 1949 الذي تضمن عبارتها المشهورة "المرأة لا تولد امرأة، بل تصبح امرأة". إلى جانب كتاب كيت مليت Kate Millet في كتابها السياسات الجنسية Sexual Politics

وبيتي فريدان Betty Friedan في كتابها الغموض النسوي (The Feminine Mystique) 1963م.

ج- النسوية الثقافية : هي حركة تفكير نسوية انبثقت من النسوية الراديكالية، وتقوم على قاعدة نظرية أساسها الوجود والتقييم الإيجابي للثقافة النسوية، وهي تركز بشكل خاص على النساء بوصفهن مجموعة وبطريقتهم الخاصة في تطوير وجودهن وبناء هويتهم الثقافية. في عام 1972م نشر العدد الأول من مجلة المرأة والسينما وهي مجلة أمريكية لم يكتب لها الاستمرار طويلا، وأعلنت هذه المجلة بأنها تنتهي للموجة الثانية من النسوية* فقد جاء في افتتاحية العدد الأول "إن النساء في هذه المجلة باعتبارهن جزءا من الحركة النسائية يدركن ما تتعرض له المرأة من قمع سياسي ونفسي واجتماعي واقتصادي ، والنضال لابد أن يكون على كافة الجبهات، وسوف نناضل في مجال صورة المرأة في السينما ودورها في صناعة السينما أي الطرائق التي تتعرض من خلالها للاستغلال، وكيفية تغيير المواقف المشينة التي تنتقص من قدر المرأة، والتي تتبناها الطبقة الحاكمة وعملاؤها الرجال تجاه المرأة⁸. وفي المقابل ستضل مقالة الكاتبة والمخرجة السينمائية لورا مالفي "اللذة البصرية وسينما السرد" Visual Pleasure and Narrative Cinema

واحدة من أهم المصادر النظرية في تاريخ السينما، فهي توظف النظرة السيكلوجية لتتناول قضية النوع في السينما، فيما له علاقة بإشكاليات كل من المصطلح وطريقة التقديم، فهي على سبيل المثال لا تريد أن تشير فقط إلى أن المرأة كانت تظهر غالبا كتابعة للرجال في الفن الروائي، ولكن أيضا في طريقة نظر الكاميرا إليها فمثلا يعد مشهد دخول البطلة لأول مرة في معظم الأفلام يصور ببطء شديد، وبمرور الكاميرا على كامل جسد البطلة الرشيق والمنمق من ساقها إلى وجهها ومن مثل هذه اللقطة المتكررة كثيرا في الأفلام يفترض صناع الفيلم أن المشاهد ذكر وهذا ما أسمته لورا مولفي بالنظرة الذكرية المتفحصة⁹. كما يرى جون لوك غودار بأن الصورة تحتوي على جانبين متعارضين ومتكاملين هما الجانب الدلالي أي ما يقال والجانب الجمالي، أي ما يتضمنه الخطاب دون قول مباشر، كما توضح جوليا كريستيفا في كتابها علم النص أهمية السينما في لعب الدور المحوري في توجيه سلوك الأفراد مثلما هي وسيلة فعالة لتوجيه أهدافهم واتجاهاتهم داخل المجتمع.

3- السينما المغربية بعد الاستقلال سينما وطنية بروح
غربية :

لقد نشأت السينما المغاربية في كل من الجزائر، تونس والمغرب في صورتها الحقيقية بعد الاستقلال وتوجهها للتعبير عن المجتمعات المغاربية مع اختلاف كل إقليم، حيث أن هناك توجهين مختلفين في طرح المواضيع السينمائية وهوراجع إلى الحقبة الاستعمارية حيث ولد هذا تناقض بين مفهومين حضاريين ورؤيتين مختلفتين للعالم والحياة اللذان كانا وراء ظهور الصراع في السينما الوطنية.¹⁰

يعتبر مشكل الثقافة الأوروبية والفرنسية بالتحديد من أهم الأسباب لعرقلة مشروع السينما المغاربية، فالأفلام في البدايات الأولى كانت موجهة للمغاربة، ولكن بثقافة غربية محضة وكأنك في صدد مشاهدة فيلم فرنسي بلغة وطنية. وحسب خميس خياطي فإن "السينما العربية عامة والمغاربية خاصة هي غربية حتى في أبسط الأشياء"¹¹، ويعود السبب بالدرجة الأولى إلى كون هذه المجتمعات قد استقلت حديثا، إلى جانب أن أهم مخرجيها تلقوا تكوينات من طرف مخرجين أوروبيين في فترة الاستعمار أو انتقلوا إلى أوروبا لدراسة السينما أو الإخراج بعد الاستقلال.

3-1 المرأة في السينما النسوية ما الجديد ؟

أشار الناقد المغربي مصطفى المسناوي إلى "أن السينما في دول المغرب العربي لها مسار مختلف عن السينما المشرقية، حيث تشاركت في تقديم رؤية أكثر تقدمية لصورة المرأة في

السينما، كما أن قضايا المرأة في السينما الجزائرية تعالج من قبل مخرجين رجال أمثال محمد الشويخ الذي يدين الضغوطات التي تعاني منها المرأة، مؤكداً أن السينما التونسية تميزت بالجرأة والوضوح نتيجة القوانين الاجتماعية التي منحت المرأة التحرر الاجتماعي وتعاملت مع جسدها بحرية أكبر بخلاف ما هو مطروح في الجزائر والمغرب¹².

السينما الجزائرية :

عرفت السينما الجزائرية بروز أول مخرجة سينمائية في الأفلام الروائية الطويلة وهي أسيا جبار في فيلمها "نوبة نساء شنة" 1979م ثم أنجزت بعد ذلك الفيلم الثاني 1980 بعنوان "الزردة" إلا أن التجارب الأولى في سنوات الثمانينات كانت بالأفلام الوثائقية ونذكر منها، الفيلم الوثائقي القصير "تقرير ذاتي Auto Détermination للجزائرية فائزة باشي إلى جانب فيلم قصير بعنوان "غريب بجاية" للمخرجة نادية شرابي لعبيدي، وفيلم فاطمة العمارية كثاني فيلم لها في الوثائقي القصير.

إن فترة العشرية السوداء التي مرت بها الجزائر قد مهدت لسينما نسوية قوية في الطرح، جريئة في المواضيع ويمكن أن نذكر هنا فيلم "رشيدة" لمخرجته يمينة بشير شويخ، كذلك فيلم "مال وطني" لفاطمة بلحاج، فيلم بركات لجميلة صحراوي وكلها مواضيع تعلق بال العنف والإضهاد الذي

عاشته المرأة مع الإرهاب، وهي صورة تقدميه لصورة عن مواجهة المرأة للعنف في زمن الإرهاب إلى جانب مواضيع تحدثت عن العنف ضد المرأة بطريقة أكثر حداثة وعصرنة كفيلم "كرة الصوف" للمخرجة فاطمة الزهراء زعموم وفيلم "عائشات" للسعيد ولد خليفة 2007م، "و وراء المرأة" للنادية شرابي 2007م، كما ظهرت موجة جديدة من النساء بعد العشرية السوداء ما سمي بأفلام الشباب الجزائري كفيلم الباب لياسمين شويخ التي ترى : "أن السينما الجزائرية قد طرحت موضوع المرأة بكثرة في مختلف المراحل التاريخية ذلك أن المرأة تقول صاحبة فيلم "الباب" كانت حاضرة في هذا الميدان، وإن كان عدد المخرجات جد قليل، لكن العنصر النسوي كان حاضرا في المهنة التقنية وكانت البوابة التي عبرت من خلالها أغلب النساء من الكتابة السينمائية إلى الإخراج"¹³.

2-3 السينما التونسية :

اصطدمت فترة الانفتاح والتحرر في تونس بوضعية النساء اللائي لم يستفدن من هذه النقلة وهن في غالبيتهم النساء القاطنات في المناطق البعيدة وغير المتعلّقات، فعبرت المخرجات عن هذه الفئة من النساء، محاولة تسليط الضوء على

العادات والتقاليد البالية التي تميز هذه المناطق، فبرزت مخرجتين سلمى بكار في فيلم فاطمة 75 ونجية بن مبروك في فيلمها الأثر 1998، وأيضا كلثوم بورناز في فيلم "كسوة" 1997، ومفيدة ثلاثي صمت القصور 1993م الذي تطرح فيه الهوية والظروف الاجتماعية للمرأة، إلى جانب موسم الرجال لعام 2000م، كما ظهرت نادية فارس بفيلمها "عسل ورماد" سنة 1996.

3-3 نماذج عن مخرجات السينما التونسية :

في سنة 1970 قام مؤسس السينما التونسية المستقلة طاهر شريعة بكتابة تقرير إحصائي حول السينما التونسية، يحتوي قائمة الأفلام المنتجة ما بين سنة 1956 و1970 فلو حظ غياب كلي للمرأة المخرجة في القائمة وبالبحت الدقيق وصل إلى بعض الأسماء النسوية التي تشغل مجال هامشي في الجانب التقني لعملية إنتاج الأفلام، لتبقى الأنثروبولوجية "صوفي فرشيو" الوحيدة وبحكم عملها بالمركز الوطني للأبحاث العلمية الفرنسية وقيا مها بتكوين في لجنة الفيلم الإثنوغرافي في متحف الإنسان الذي مهد لها الطريق لإخراج أول أفلامها 1970 "شيشية"، في الوقت الذي تتواجد فيه الطالبات التونسيات في معاهد السينما في أوروبا.¹⁴

■ من المونتاج إلى الإخراج: تعتبر مهنة التركيب من المهام المسندة للمرأة في السينما ويمكن القول أنه الميدان الذي إحتكرته المرأة لسنوات، غرفة المونتاج كما يقول البعض، هي المطبخ الفعلي الذي من خلاله نخلط كل المقادير المتعلقة بالفيلم، وفقط صبر المرأة الذي يجعلها نسخة قابلة للعرض.¹⁵

* مفيدة تالانلي كاتبة ومخرجة ومركبة، ولدت في سيدي بوسعيد بشمال تونس في عام 1947م، درست السينما في العاصمة الفرنسية باريس، وعملت بعدها في التلفزيون الفرنسي كمحررة نصوص ومديرة إنتاج، ثم عادت إلى تونس في عام 1972م ونالت شهرة كبيرة بفضل عملها كمركبة، وتعاونت من خلال هذه الأفلام مع عدد من المخرجين والمخرجات، ناجية بن مبروك، سلمى بكار، ثم بدأت في الاتجاه للكتابة والإخراج ومن بين أهم الأفلام الطويلة التي قامت بتركيبها فيلم "عمر قتلاتو" لمرزاق علواش 1976. "سجنان" لعبد اللطيف بن عمر 1974، وفيلم "نهلة" لفاروق بلوفة، 1976، "حلفاوين" لفريد بوغدير 1990م، "الشامة" لنجية بن مبروك 1978م "وعزيزة" لعبد اللطيف بن عمار 1980، والقائمة طويلة بين السكريبت والمونتاج.

إضافة إلى أفلامها التي أخرجتها فيلم "صمت القصور" الذي شاركت في بطولته هند صبري وحازت من خلاله على جائزة

الكاميرا الذهبية في مهرجان كان السينمائي الدولي عام 1994م، إلى جانب فيلمها "موسم الرجال" سنة 2000م و"نادية وسارة" 2004م.

■ من الإنتاج إلى الإخراج :

*سلمى بكار: مخرجة تونسية من مواليد 1945م، تخرجت من المعهد الفرنسي للسينما ، عملت في التلفزيون التونسي ، في عام 1990 أصبحت أول منتجة تونسية بتأسيسها لشركة إنتاج خاصة ، تحصلت على جائزة السينما في اليوم الوطني للثقافة أنتجت عدة أفلام مثل الشامة لنجية بن مبروك . وأخرجت ثلاث أفلام : "فاطمة "75" 1976"، رقصة النار 1995"، و"خشخاش" 2006 هذا الأخير الذي "انطلق من حكاية شابة تتزوج رجلا ثريا، لكنه شاذ جنسيا، ما يؤثر في علاقتها الزوجية، ويدفعها إلى إدمان "خشخاش" حتى تواجه حقيقة حرمانه العاطفي .. غير أن الإدمان يقود بطلة الفيلم إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث تلتقي برجل يعاني بدوره من مشاكل نفسية، فتجمع بينهما علاقة تدفعها للبقاء في المستشفى وفي هذا العالم الجنوني، بعيدا عن واقع لم يقدم لها إلا الآلام.¹⁶

■ من كتابة السيناريو إلى الإخراج السينمائي

*رجاء عماري : مخرجة سينمائية تونسية، ولدت بمدينة تونس عام 1971م، حصلت على الأستاذية في الأدب الفرنسي

كما تخرجت من المؤسسة الأوروبية لحرف الصورة والصوت، فتخرجت من قسم السيناريو بها 1998م، حصلت بفيلمها الطويل الدواحة على الجائزة الأولى (آرت مار) في مهرجان الفيلم والثقافات المتوسطية بباستيا (فرنسا) ومن بين أعمالها : فيلم قصير بعنوان "ذات مساء في جويلية" 2000م، الفيلم الوثائقي "على آثار النسيان" 2004م والفيلم الروائي الطويل "الحرير الأحمر" 2002م هذا الأخير " أول أفلامها الطويلة ، تصور المخرجة حكاية امرأة في الأربعينيات من عمرها (الممثلة الفلسطينية هيام عباس)، تعيش الوحة مع ابنتها، في ظل غياب الرجل في حياتها، ما يقودها إلى البحث عن حياة مختلفة ، تنتهي بها إلى الملاهي الليلية ، حيث تمتن الرقص، وتفرض عليها الأحداث تزويج ابنتها من عشيقها.¹⁷

تعتبر التجربة السينمائية النسائية في تونس علامة فارقة في تاريخ الفن السابع التونسي، فالسينمائيات التونسيات حاضرات بقوة في مختلف جزئيات العملية السينمائية من كتابة وإخراج وأداء ومونتاج وغيرها من الاختصاصات الفنية، ماعدا التصوير، وهندسة الصوت، وندرة الأسماء المختصة في النقد السينمائي، والأهم لا توجد سينمائية واحدة اختصت فقط بكتابة السيناريو، فالكتابة رغم أهميتها في العملية السينمائية، لا تحظى باهتمام كلي من السينمائيات ، وتمارس إلى جانب الإخراج.¹⁸

بدايات سينما المخرجات في تونس، كانت محتشمة وضيقة، المواضيع كانت جريئة وأضفت شيئا من الواقعية بحكم انتمائها لسينما المؤلف، وبعد الثورة التونسية 2011م، برزت مخرجات يبحثن عن التحرر والشمولية في أعمالهن ما جعل إنتاجات هذا الجيل الثاني من المخرجات أكثر ثراء وتنوعا لكن تبقى مخرجات (الجيل الأول)، رائدات السينما التونسية المتحكمة في جمالية الصورة واللغة السينمائية.

4-3 - السينما المغربية :

حاولت سينما المخرجات بالمغرب ملامسة بطريقة ضمنية أو ظاهرة قضايا وصورة المرأة عن ذاتها وعن جسدها وتمثيلها لقضايا الجنس بنوع من التحرر فيلم ماروك لليلي مراكشي او المحافظة فيلم الراكد لياسمين قصاري كما أظهرت بعض الأفلام جانبا من همومها وانشغالاتها العاطفية والأسرية واحتكاكها مع العادات في فيلم في بيت أبي لفاطمة جبلي الوزاني وارتباطات الرجل بالمرأة فيلم طريق لعيالات لرحمة بورقية وإخفاقاتها ونكساتها فيلم انهض يا مغرب لنجس النجار ومشاكل التثاقف (فيلم خوانيطا بنت طنجة لفريدة بليزيد).

لا تخرج اهتمامات المخرجات المغربيات عن مثيلتهن في العالم، فهن يتناولن، بطريقة واعية أو لا واعية، الواقع الاجتماعي وقضايا العائلة وإشكالات الجنسية وهي تيمات

ترتبط ارتباطا شديدا بعوالم المرأة في أعماق امتداداتها دون إغفال خصوصية الموقف من العادات وأدوار المرأة في المجتمع وعواطفها وغرائزها.¹⁹

4-مخرجات المغرب بين الرؤى الإخراجية والواقع الاجتماعي لأوضاع المرأة:

عملت المخرجات تصوير مواضيع عن المرأة بنوع من العمق في التأمل وخاصة المواضيع التي كانت من الطابوهات التي لا يمكن التطرق لها، فاتسمت الصورة المقدمة بالتنوع والتركيز على عنصر الأنثى فصورت على أساس أنها امرأة محرومة ويائسة، في فيلم الراقد لياسمينه قصاري وفيلم البائسة خوانيتا ناربوني لفريدة بلزيز. كما صورت في صورة المرأة الماجنة في العيون الجافة لنجس النجار، إلى جانب صورة المرأة البدوية والذي عبر عنها بقوة فيلم الجمرة لفريدة بورقية ، كما عبر فيلم "بارابول" لنجس النجار عن المرأة المهوسة بمشاهدة التلفزيون، كما صور فيلم "باب السماء مفتوح" لفريدة بلزيز، وضعية المرأة المضطهدة ومعاناتها من القهر والعنف والاعتصاب، واستطاعت المخرجة من خلال هذا الفيلم تسليط الضوء في تمثل المرأة في أبشع الوضعيات وصبغ منحنى الإثنوغرافية في الأبعاد الدلالية والفنية والجمالية، أما عن المرأة المتمردة فكانت مقدمة وبشكل جريء في فيلم ماروك لليلي المراكشي، كما ترجم فيلم في

"بيت أبي" صورة المرأة الخائفة لمخرجته فاطمة جبلي الوزاني، المرأة الضائعة في فيلم "طريق العيالات لفريدة بورقية، والمرأة الماكرة في فيلم "كيد النساء" لفريدة بليزید.²⁰ يقول الناقد والصحفي المغربي محمد بلوش:²¹ الإشكال الكبير الذي يطرح في جل الأفلام التي يردد منتجوها أنهم عالجوا خلالها قضايا المرأة المغربية أنها تكون أفلاما أنتجت بدعم خارجي فرانكوفوني يفرض أصحابه بطبيعة الحال، تقديم تلك الأفلام للمرأة بالصورة التي يشاؤونها هم، وبالتالي لم تجد سينمائيات مغربيات وعربيات أي دعم لتحقيق مشاريع أفلام طويلة حول المرأة بسبب اشتغال السيناريو على الموضوع بطريقة موضوعية ، بل إن بعض الأفلام المغربية التي يدعي مخرجوها تطرقها لقضايا المرأة المغربية، هي أصلا مقتبسة من أعمال روائية فرنسية وبعضها الآخر قدّم المرأة المغربية في شكل داعر كفيلم "العيون الجافة" لـنرجس النجار".²²

تراوحت صورة المرأة في السينما المغربية من صنع نسائي أو رجالي بين الإستهجان والإباحية فمثلا: فيلم : "ماروك"²³ من الأفلام المغربية التي أثارت ضجة كبيرة وأسالت الحبر مؤيد ومعارض، وهو أول تجربة لليلي مراكشي، وكأنها به تتحدى الواقع المغربي هوية، ومعتقدا، وعادات وتقاليد، حيث يصرح الناقد المغربي نور الدين كوشي في احد المنابر

الإعلامية بأنه تمرد بلا سبب. كما اثار هذا استياء الأوساط الفنية بمشاركته (فيلم ماروك) في المهرجان الدولي المغاربي بطنجة لدورة 2006".

طبعت النظرة الذاتية في جل الأعمال السينمائية للمخرجات والتي تمتاز بطابع الدراما الاجتماعية إلا أن هذا أن لم يمنع من اكتساب تجارب مهمة انفتحت على أساليب ولغة وكتابة فيلمية متنوعة خاصة بكل مخرجة وهذا ما يجعلنا نصنف أفلامها في سياق سينما المؤلف. تتميز كل مخرجة سينمائية مغربية بأسلوبها وبطريقتها الخاصة في توظيف اللغة السينمائية وبفرادة عوالمها، إلا أنهم استطعن مراكمة تجارب مهمة انفتحت على أساليب وتيارات وأنواع فيلمية متعددة.²⁴

خاتمة:

تعد سينما المخرجات من بين المحطات الهامة في تاريخ الإبداع السينمائي، كون أن هذه السينما نبعت من التحولات السياسية والاجتماعية للمجتمعات العربية عموما والمجتمعات المغاربية على وجه الخصوص، فالمخرجات المغاربيات حاولن تجسيد صور للمرأة تتناسب مع التطور

الحاصل في أدوارها الجديدة، لكن لا يخلو هذا من بعض الصور السلبية التي لاحظناها في بعض الأفلام التونسية والمغربية الذي دعى من خلالها المخرجات إلى تحرر المرأة والتشبه بالثقافة الغربية بعيدا عن القيم الحقيقية التي ينتمين إليها فكان الجنس والجسد مركز أفلامهن تقريبا، لكن تبقى صورة المرأة في السينما الجزائرية صورة محافظة مشبعة بالعادات والتقاليد الجزائرية. كما حاولت المخرجات المغاربيات تسليط الضوء على علاقة الرجل بالمرأة ودوره في إنصافها أو ظلمها، وذلك لتوضيح مكانة المرأة في المجتمع المغربي الذي يحكمه المجتمع الذكوري. كما برز التنوع اللغوي في أفلام المخرجات للدلالة على لغة كل مجتمع مغربي.

تبرز صورة المرأة التقدمية في أفلام المخرجات وذلك وفقا للمراحل الاجتماعية والحقوقية التي مرت بها المرأة المغربية في كل قطر، لكن تبقى المعالجة سطحية بعيدة عن العمق والتحليل. ففي معظمها نلاحظ عدم التكافؤ في الصورة، فالمرأة المغربية تخندقت في صورتين الصورة القاتمة ونعني بها المرأة المعنفة والبائسة والتي سلبت منها حقوقها أو المرأة المتحررة التي تجاوزت كل الخطوط الحمراء من عادات وتقاليد وحتى الدين الذي استبعد كثيرا في أفلام المخرجات.

في 2012، 23.0 % من المخرجين المعتمدين هم من النساء ومنذ السنوات الأخيرة ارتفع معدل نسب المخرجات من 18% سنة 2008 إلى 23.0 % سنة 2012. وهذا مؤشر إيجابي لمشاركة المرأة في الصناعة السينمائية، في حين يبقى الدعم لإنتاج أفلامهن ضعيف بالمقارنة مع الدعم الذي يستفيد منه المخرج السينمائي. إلى جانب أجر الذي يقدم والذي يقل عن أجر الصنف الذكري. كما وصل عدد الأفلام المنجة بين سنة 2008 و2012 إلى 1282، 998 لفئة الرجال ما يعادل 77.8% في مقابل 19.7% إخراج نسائي. وهذا يجعلنا نتساءل على أي أساس يتم تدعيم الأفلام في الصناعة السينمائية. فتدعيم أفلام المخرجات يمكن أن يكون خطوة مفيدة للمشاركة التكاملية للكتابة عن المرأة وأوضاعها ويضيف صفة التنوع والتعمق بعيدة عن النظرة التمييزية التي لا تخدم مستقبل السينما المغاربية بصفة عامة.

الهوامش

1- Françoise Audé, cinéma d'elles 1981-2001, L'Age d'homme, Lausanne, suisse, 2002 p 58

2- رفاعة رافع الطهطاوي، تخلص الإبريز إلى تخلص باريز، القاهرة، دار التقدم، 1905، ص 67.

- 3- نقلا عن قاسم أمين، المرأة الجديدة، طبعة المعارف، 1900، ص 211.
- 4- رشيدة بن مسعود ' المرأة والكتابة، سؤال الخصوصية / بلاغة الاختلاف، ط2، الرباط، افريقيا الشرق، 2002، ص ص 10-11.
- 5- أمينة بنت عبد الرحمن الجبرين المسهر، المقالة النسائية السعودية (دراسة نقدية) 1999-2009، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في الآداب، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية، 2009، ص 11.
- 6- ممدوح فراج النابي، مقالة بعنوان : الخطاب النسوي عند فاطمة المرنيسي نماذج التحرر عبر التخييل السردي، مجلة علامات، العدد 37 ص 118.
- 7- فضيلة الفاروق، تاء الخجل، رياض الريس للكتب والنشر، ط1، بيروت، أفريل 2003، ص 11.
- 8- محامد اشويكة، السينما المغربية : رهانات الحداثة ووعي الذات، دار التوحيد للنشر، ط1، المغرب، 2012، ص 100.
- 9- سارة جامبل، النسوية وما بعد النسوية، طبعة المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002 ص ص 145-160.
- 10- عائشة خليل، النظرة الذكورية المتفحصة، موقع مركز مساواة المرأة على الرابط: <http://www.c-we.org/ar/show.art.asp?aid=440478>
- 11 حسان أبو غنيمية : السينما العربية الماضي والحاضر ، النادي السينمائي الأردني ، مطبعة الندى ، الأردن ، 1995، ص 56.
- 12 جورج سادل ، ترجمة ابراهيم الكيلاني وفايزكم نقش، تاريخ السينما في العالم نقلا عن: نفيسة نايلي : صورة المرأة من خلال السينما المغربية في الفترة 2005-2009 أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في علوم الإعلام والاتصال ، جامعة الجزائر 3 ، 2012 ص 135.
- 13- أحمد بلية، (السينما الجزائرية: الواقع والآفاق)، مجلة العربي، وزارة الإعلام، الكويت، العدد 563، 2005، ص 129.
- 14- جان الكسان، مرجع سبق ذكره ص ص 241-242.
- 15- عواطف زراي، صورة المرأة في السينما الجزائرية : تحليل نصي سيميولوجي لفيلمي "القلعة" و"توبة نساء جبل شنوة"، مذكرة ماجستير في علوم الإعلام والاتصال، جامعة الجزائر، 2002، ص 82.

16- سمير فريد، هوية السينما العربية، دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى، 1988، ص 74.

17- عواطف زراي، مرجع سبق ذكره ص 92.

18 - سمير فريد، مرجع سبق ذكره، ص 74.

19- عواطف زراي، مرجع سبق ذكره، ص 96.

20- إسراء الردايدة، النساء العربيات ينتزعن الصورة النمطية من السينما ويقدنا مرحلة جديدة بأطروحات متحررة، اللجنة الوطنية لشؤون المرأة، بتاريخ 2011/03/08 المصدر <http://alghad.com/articles/644107>

21- زهية منصر، نساء يتحدثن عن حضورهن في السينما ويكشفن عن مشاريعهن، صحيفة "الشروق اليومي"، العدد 2314 بتاريخ 2008/05/ 30 المصدر https://www.echoroukonline.com/ara/?news=4344?print&output_type=atom

22 - خالد ربيع السيد، الفانوس السحري، قراءات في السينما، ط1،

23- Abdelkrim Gabous, Silence, elles tournent !: les femmes et le cinéma en Tunisie, Cérès Edition, Tunisie, 1998, p 12 Abdelkrim Gabous, op, cit, pp 12-14.

24-Roy Armes : les cinémas du maghreb :images postcoloniales, l'Harmattan, 2006, France, p39-40.